

● تأملات في نظام التفكير

(المحلي مثلاً)

■ الشيخ محمد عليوات*

نظام التفكير في المجتمع المحلي (قراءة أولية)

يلقي النظام الاجتماعي - الاقتصادي - السياسي بثقله في تشكيل نظام التفكير، إذ يتأثر الأفراد بالبيئة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تحيط بهم، ويسود فيها ألوان مختلفة من العلاقات الاقتصادية والاجتماعية، إذ يتولد نظام تفكير يتناسب والعلائق السائدة من حيث البساطة والتعقيد، ويعكس طبيعة العلاقات القائمة فالبيئة الزراعية والبحرية تفرز نظام تفكير يختلف عن البيئة الصناعية مثلاً، نظراً لاختلاف العلاقات السائدة في كلا البيئتين.

البيئة البحرية ونظام التفكير:

تمتلئ الذاكرة الجماعية عن البحر بالكثير من مخاطره ومصاعبه، وتقلباته، وأحواله، كما تزدهم بالكثير من المقولات والحكايات والأمثال الشعبية، والتي يمكن من خلالها رصد معالم نظام التفكير، ومن هذه الأمثال الشعبية.. «البحر والزمان ما لهم أمان»^(١)، و«البحر غدار»^(٢). وهذان المثلان يعبران عن عمق الخوف والتشاؤم من البحر في نفوس الناس، رغم أنه مصدر رزق للكثير منهم وخصوصاً في الزمن القديم.

ويتجسد التشاؤم في أشد صوره في المثل القائل: «البحر الداخ فيه مفقود.. والطالع منه مولود»^(٣).. حيث تبرز النبرة التشاؤمية العالية، والتي استقرت في تفكير الناس نتيجة

* عالم دين، مفكر إسلامي، السعودية.

_____ تأملات في نظام التفكير (المحلي مثلاً)

الأهوال والأحداث المريرة وفقدان الضحايا في ظروف مختلفة وعبر أجيال عديدة. وقد نسجت حكايات شعبية مماثلة تظهر القلق والهلع الشديدين من البحر، وربما تفسر هذه الظاهرة جزءاً غير يسير من سيادة الفكر القلق، والحذر، والتشاؤم، وكأنه تعبير عن صراع مع أمواج البحر الغادر. إن نظام التفكير يتشكل عبر أجيال متتالية تنتقل من خلالها المقولات الفكرية والنفسية لتشكل منظومة متجانسة... وهذا ما يلقي الضوء ربما على أحد مكونات نظام التفكير المحلي الذي ينزع نحو التشاؤم والقلق، وكأن الظروف البيئية البحرية وما أحاط بها من مشكلات وأهوال قاسية لا زالت تلقي ببعض ثقلها على نظام التفكير المعاصر في تواصل مع الزمن وتوارث عبر الأجيال.

ومن ناحية أخرى يمكن قراءة نظام التفكير السائد في البيئة البحرية في الزمن القديم «أيام الغوص»^(٤) من خلال إلقاء الضوء على العلائق المهنية المتمثلة في علاقة «النوخذة»^(٥) بالبحارة (فريق الغوص) إذ تصف بعض الأمثال الشعبية نوعية العلاقة السائدة وترسم صورة غير حسنة عن «النوخذة»، حيث توسمه بالشدة والخشونة في تعامله مع (البحارة) الذين تمتلئ نفوسهم بالحذر والخوف والانقياد والطاعة له^(٦).

وكل هذه الأمثال تشير إلى علاقة نمطية كانت سائدة وحاكمة في البيئة البحرية تعطي توصيفاً لنوعية العلاقة بين الطرفين مهنيًا وإنسانيًا، حيث يفرض فيها القوي نفسه وشروطه على الضعيف، ويشعر البحارة بالغبين والقهر جراء الشروط المفروضة عليهم من قبل «النوخذة» الذي يوصف غالباً بالتسلط.

البيئة الزراعية ونظام التفكير:

تتشابه البيئة البحرية والزراعية في نظام التفكير المحلي في الزمن القديم من حيث طغيان العلاقة التسلطية واستضعاف الطرف الآخر وهو هنا «الفلاح» إذ يسود نظام مشابه لنظام الإقطاع، حيث يتحكم الملاك في الأرض، وغالباً ما يفرضون شروطاً مجحفة بحق الفلاح، والذي يذعن للشروط المفروضة بمرارة للحفاظ على أدنى مقومات العيش، وسد الرمق. وقد تولد جراء ذلك شعور عميق بالغبين والإهانة والإحساس العميق بالفوارق الطبقيّة. وقد غذى الشعور بالاستعلاء عند بعض أصحاب الثروة والملاك شعوراً بالتفوق على القوم الضعفاء، بل أصبح هذا الشعور طريقة ومنهجاً للتفكير يجد طريقه عند الحاجة، ويصنف الناس بناء عليه عند اللزوم، ليبقى السيد سيداً إلى الأبد، ويبقى الآخر عبداً، وكأن المعادلة شبيهة بعلاقة المركز والأطراف في عالم الاقتصاد والسياسة، فأهل المركز يقررون باعتبارهم السادة الحاكمين، وعلى أهل الأطراف القبول والسمع والطاعة فحسب وإلى الأبد. ومن هنا رأينا أن ثقافة احترام القوي ولو كان جائراً سارية، وأما الذي يظهر

لطفاً وتواضعاً ورحمة قد لا يجد إلا الإعراض والمشاكسة، إنها عقلية القوم الذين اعتادوا أن يكونوا في موضع القبول والسمع والطاعة، ولا يجدون متعة في الحياة بدون قوي، سيد يجلدتهم، فإذا وجدوا من يحترمهم ويقدرهم أشعروه بالسخط وعدم الرضا عنه!
ومن الملاحظ في النظام الاجتماعي القديم رغم تراكم الغبن، وسيادة القهر الاجتماعي، إلا أن الحياة كانت تسير بشكل رتيب غالباً، ولم يحدث الاعتراض والتمرد على النظام الاجتماعي السائد كما يتوقع!

ويمكن إرجاع ذلك في بعض نواحيه إلى هيمنة المفهوم السلبي لثقافة الصبر على الأذى وتحمل المصائب إلى أبعد الحدود. وربما كان المتوارث المذهبي الاجتماعي والقائل بأن من هم قدواتنا صبروا! يغذي هذه الثقافة تبريراً للخضوع والاستسلام للواقع السائد ليس إلا.
ومن المؤكد أن هذا النمط التقليدي من الثقافة السائدة لعبت دوراً مؤثراً في برمجة نظام التفكير بشكل سلبي، تتمثل في الاستسلام للأقدار، والابتعاد عن مصاعب التصدي ولو على المستوى الاجتماعي لقطع دابر الغبن والقهر والتسلط ولو في شكله الاجتماعي.

المرأة في نظام التفكير:

من الناحية العملية فإن المرأة في القاموس الاجتماعي السائد لا ترقى إلى مصاف الرجل، بل تلاحقها النظرة الدونية، ولا ينظر إليها إلا من خلال وظيفتها البيولوجية - المحدودة والمتعارف عليها إلى وقت قريب- (المنزل - الأسرة - الخدمة - الطاعة).
وتمعن المقومات الشعبية التي تمثل روح التفكير الجمعي في استضعاف المرأة خصوصاً (الزوجة) وتصورها على أنها الذليلة، والنادمة في كل الأحوال. «خيرتها تعود إنكسه الرأس»^(٧). وحتى العقاب لا يظهر أثره إلا على المرأة، فكأنها هي التي تذنّب وحدها، ولا تعود عن ذنبها إلا بعقاب!

«دع عنك؛ ما ضاقتها مره وعودت»^(٨).

وتذهب بعض الأمثال بعيداً في استضعاف الأنثى، والتشاؤم منها كمولودة.. كقولهم: «مبغوضة وياب (انجبت) بت (بنت)» وغير ذلك من المقولات والأمثال الشعبية التي تجلي النظرة العامة، وطريقة التفكير إلى المرأة، إذ يحاصر هذا النمط السائد من التفكير المرأة، ويجعلها تعيد إنتاج هذه النظرة على نفسها مرة أخرى، فتزيد من تضييف مكانتها وشخصيتها، وهذا ما يجعل من كل ذكر أنى كان وفي أي مستوى كان يتمصص دور البطل المتفوق الذي يعطي لنفسه كل الحق في تسيير الأنثى بالشكل الذي يروق له، وهي في نظره لا تستحق أكثر من ذلك، فهو الرجل وهي الأنثى.. مقياس ثابت في الذهن، ومقولة ثابتة في نظام التفكير لم يدخل عليها الزمن بكثافة متغيراته إلا تغييراً طفيفاً! فعليها أن تسمع وتطيع في كل الأحوال، في الحق والباطل، إذ أنه يتصف بالكمال وهي ناقصة!

_____ تأملات في نظام التفكير (المصلي مثلاً)

ومن الواضح أن نظام التفكير السائد يفترض الرجل حاكماً على المرأة يسيرها كيف يشاء متى يشاء، ولقد جنحت التقاليد الاجتماعية وتجاوزت المعقول في استتباع المرأة للرجل، وتوفير حماية مبالغ فيها إلى حد تعطيل الملكات والقدرات المختلفة التي تتمتع بها أي امرأة في مناخ صحي يوفر الاحتياجات الخاصة بها بشكل معتدل، لولا احتياطات ومبالغات الحماية المفرطة في السلبية، وكان من نتائج هذه الحالة الاتكالية المفرطة في السلبية، وشل القدرة حتى في المواقف الطارئة التي تحتاج إلى مبادرة فورية لاتخاذ القرار المناسب.

ومن أطرف ما قرأت ما كتبه الدكتور الفوزان في أحد الجرائد المحلية من توقف أحد المركبات التي تنقل مجموعة من النساء في أحد الأنفاق المليئة بالأمتار.. وكان بإمكانهن النزول والابتعاد عن الخطر المحقق، إلا أنهن وكما يبدو من المقال فضلن الانتظار في المركبة إلى حين وصول رجال الإنقاذ^(٩).

هذا مثال واحد من أمثلة عديدة يؤثر إلى نظام تفكير عليل يحكمنا ممتد في صلب حياتنا المجتمعية. إذ يفقد هذا النظام أبجديات النضج والرشد الإنساني، فكيف تستطيع امرأة في ظل نظام تفكير عقيم الاعتماد على الذات واتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب!

إن الثقة بالذات تربية أسرية واجتماعية، وثقافة تصنعها الأمة وتغذي بها ناشئتها، والحماية المفرطة التي تحاط بها الأنثى الرشيدة تجعلها ترتاح تحت ظلها وتطلب المزيد، فإذا حانت ساعة الجد ووقت الحسم رسبت في الامتحان!

ولأن المرأة في كثير من الأحيان تبقى تحت نفوذ القهر وتتجرعه غصة بعد غصة، فيكون ذلك جزءاً من اللاوعي المكبوت والمدفون في أعماقها، وإن تظاهرت بالرضا في إطار العلاقة الزوجية (مثلاً) بيد أن ذلك المكبوت إن وجد قد يفجر قصصاً بل أساطير غير قابلة للتصديق في لحظة انتقام تتوارى خلفها كل الضوابط الأخلاقية والاجتماعية. وربما تبحث المرأة المقهورة عن فرصة خلاص، أو تختلس فرصة للخلاص لتمارس ما تشاء في لحظة غيبة الرقيب الجلاد!

إن القهر الاجتماعي يقطع حبل التواصل الإنساني، ويحيل المشاعر الإنسانية الدافئة إلى جليد تتجمد من خلاله المشاعر اللازمة للتواصل والتواد، بل قد تنقلب المشاعر في مثل هذه الحالة إلى نيران غضب وحقد وانتقام! وإذا تكالبت على المرأة عناصر القهر وسلب الثقة بانث ضعيفة الشخصية لا تقاوم الصعاب، ولا تواجه التحديات بل سرعان ما تنهار، وتستسلم لقدرها الموهوم، ولا تسعى بكل ما أوتيت من قوة وعزم لتخطي المشكلات، واستيعاب الأزمات، حيث أن ضعف الشخصية يفتح الباب على كل الاحتمالات، فكم امرأة انهارت علاقتها الزوجية، وضاع بين يديها مستقبل مفعم بالحب والأمل، لأنها لم تتحمل إدارة أزمة زوجية.

وكم من امرأة وقعت في شباك الإغراء، وأسقطتها كلمات الحب المزيفة، وإرادة الغدر الماكرة، وانطوت عليها أحابيل شياطين الإنس! إنه ضعف الشخصية بكل تفاصيله السلبية،

وهو صناعة نظام تفكير بأسس!

الاتصالات الخارجية:

يمنح الموقع الاستراتيجي فرص الانفتاح والتواصل مع الأمم والشعوب، فالبلاد التي لها سواحل بحرية تطل بها على العالم تختلف من حيث مخرجات التفكير فيها عن تلك البلاد المنعزلة.

وقد لعبت السفن التي كانت تجوب البحار والمحيطات -في العالم القديم- دوراً مؤثراً في ربط مناطق العالم ببعضها البعض قبل تطور حركة الاتصالات العالمية الحديثة. ويحدثنا التاريخ عن المنطقة^(١٠) بأنها كانت من أكثر المناطق حيوية وانفتاحاً على العالم بحكم موقعها الجغرافي، فقد تمتعت دارين بشهرة فائقة في العصور الخالية، حيث كانت محط الأنظار لطلاب الثروة، إذ كانت السفن ترد إليها من الهند محملة بالتوابل والمنسوجات والسيوف الهندية والمسك والبخور والأحجار الكريمة والعاج والخشب الفاخر النادر، ومن الصين محملة بالحرير والمنسوجات الحريرية والخضار، ومن بلاد العرب الجنوبية محملة بالمر واللبان والبرود اليمانية والعاج الوارد إليها من سواحل أفريقيا الشمالية، ثم تعيد تصديرها إلى جميع أنحاء العالم^(١١).

وقد ذهب علماء الآثار إلى أن آثار الاستيطان البشري في المنطقة الشرقية أكثر وضوحاً من أي جزء آخر من المملكة^(١٢).

وفي العصر القريب كانت القطيف مركزاً تجارياً بحرياً حيوياً خصوصاً وأن المنطقة عرفت بتصديرها اللؤلؤ إلى كافة أنحاء العالم.

وفي العصر الحديث وبعد اكتشاف النفط، اتسعت حركة الاتصالات بينها وبين العالم الخارجي بوجود أعداد كبيرة من الأجانب في البلاد يعملون في حقول النفط ومرافقه. وقد ساعدت هذه العناصر (موقع استراتيجي، وحركة اتصالات نشطة، وكثافة بشرية أجنبية عاملة) على تشكيل بنية تفكير تتسم بالانفتاح وقبول الآخر وعدم الاستيحاش من الغريب والأجنبي، وكذا جملة من أخلاقيات التسامح الديني والمذهبي، بل والقومي والعرفي بشكل لافت جداً، وقد نمت هذه الحالة جواً ودوداً من التواصل الإنساني مع مختلف الجنسيات العالمية العاملة في البلاد بدون أي شعور بالتوجس أو الحذر، بل يمكن القول أن المنطقة تعد من المناطق الجاذبة التي تستقطب الآخرين بسبب وجود تقاليد أخلاقية عالية في التعامل والتواصل الإنساني، يشهد بذلك القريب والبعيد.

كما ساعدت كثافة الاتصالات بالخارج على نمو ثقافات وأفكار مختلفة تعبر عن مدارس وتيارات فكرية وسياسية وعلمية، إقليمية وعالمية مختلفة ومتباينة، أفضت إلى إنهاض العقل المحلي، وارتفاع مستوى نظام التفكير.

الأخطار والاضطرابات:

تتمتع المناطق الوداعة، والمجتمعات المستقرة بنمط خاص من الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية، كما تنشأ علائق مختلفة تتناسب وحالة الاستقرار، وهذا ما يرفد ويصوغ نظام تفكير يختلف عن نظام تفكير آخر ينتمي إلى مناطق لا تعرف الاستقرار، أو صيغ في ظروف اضطرابات وأخطار.

وقد تعرضت المنطقة على امتداد تأريخها لأحداث واضطرابات عديدة، ففي التاريخ القديم -أي فترتي العهد الأموي والعباسي- حفل بأحداث جسيمة حيث قام الحاكم الأموي في زمن معاوية بأعمال ضد الموالين لأهل البيت وحمل الباقين على مفارقة التشيع، وحاربهم اقتصادياً، حيث كان للعنف الطائفي دوراً بارزاً في صياغة تلك الأحداث^(١٣).

وقد تفجر الموقف في عهد المنصور العباسي سنة ١٥١هـ، حيث وجه المنصور جيشاً للقضاء على الثورة المندلعة ضد العباسيين آنئذ، فقتل كثيراً من أهلها وسبى النساء والأطفال، وكانهم غنائم دار حرب وكفر، وبُعث ببعض السببي والأسرى إلى المنصور فأعدم بعضهم.. وقد اقتضى الوضع أن تبقى المنطقة تحت الرقابة الشديدة^(١٤).

القرامطة في القطيف:

ذكر المؤرخون أن أبو سعيد الجنابي -أحد قادة القرامطة- قام بشن غارات إرهابية متتالية على نواحي القطيف.. وأحرق الزارة (من نواحي القطيف) ودمرها تدميراً كاملاً^(١٥).

القطيف في الدولة العيونية:

«كما توالى الاضطرابات والأحداث في زمن الدولة العيونية (٤٦٦ - ٦٣٦هـ) وامتدت إلى زمن بني عصفور وبني جبر»^(١٦).

القطيف في قبضة الاحتلال:

هاجم البرتغاليون القطيف واحتلوها بعد مقاومة شرسة من الأهالي سنة ١٥٧هـ، وقاموا بإنشاء مراكز دفاعية لهم في تاروت وعنك ودارين... و...^(١٧)

القطيف والأتراك:

وحين استولى الأتراك على القطيف بعد طرد البرتغاليين أزهقوا المواطنين بالضرائب الباهظة، وارتكبوا أعمالاً تعسفية فادحة ضد الأهالي، والأنكى من ذلك أنهم أثاروا النعرة الطائفية، وأدى ذلك إلى نشوب ثورات أهلية استمرت طيلة عهدهم^(١٨).

وقد حوصرت القطيف وتعرضت لقصف شديد، وهجمات متكررة في مقاطع تاريخية عديدة منها: هجوم رحمة بن جابر العذبي (العتبي) - قرصان شهير تحالف مع المصريين في احتلالهم للمنطقة وقام بمحاصرة القطيف سنة ١٨٢٤م، وإجبارهم على دفع الأتاوة، وعاد مرة أخرى سنة ١٨٢٥م إلى قصف مينائها^(١٩).

غارات البدو:

عمدت الدولة التركية في آخر عهدها خصوصاً إلى تغيير الولاية بين فترة وأخرى لمعالجة الأوضاع المتدهورة في المنطقة، غير أنها ظلت تتزايد من سيئ إلى أسوأ، ولم تستطع أن تغلب على المشاكل الناجمة من استفحال خطر البدو وقطاع الطرق وفساد الإدارة، وانتشرت عصابات اللصوص، حتى كانت العصاة تهاجم المواطن في بيته وتجبره تحت تهديد السلاح على تسليم مفاتيح الخزانات والأبواب، وتسلبه ما يملك من نقود وذهب وأموال^(٢٠). وقد بلغت الفوضى ذروتها حين هاجم البداية القطيف من كل حذب وصوب في (وقعة الشربة) الشهيرة عام ١٣٢٦هـ - ١٩٠٩م فحاصروها قرابة ستة أشهر على مشهد ومسمع قوات الدولة التي وقفت موقف المتفرج فلم تستطع أن تعمل شيئاً، وتكدت البلاد خسائر جسيمة في الأموال والأزواج^(٢١).

ما تقدم بيانه وصفاً مختصراً لبعض الأحداث التي عصفت بالمنطقة، وقد وصف المؤرخ والأديب محمد سعيد المسلم «تاريخ المنطقة» بقوله: إن هذه المنطقة لم تعرف حياة الاستقرار إلا في فترات قليلة من تاريخها، فقد عصفت بها الأحداث والاضطرابات في أغلب عهودها^(٢٢). وهذا الوصف الموجز يعكس حجم التغيرات السياسية والاجتماعية، والمعاناة النفسية الهائلة التي كان يرزح تحت ثقلها المجتمع بشكل عام لعقود زمنية طويلة، مما يمكن معه القطع بمساهمة تلك التغيرات في تشكيل نظام تفكير بملامح خاصة، حيث تحمل المجتمعات في نظام تفكيرها العام روح التاريخ الموروث بخيره وشره، وثباته وتقلباته وأحداثه ومستجداته. ومن الواضح أن التاريخ القديم المزدحم بالأحداث والاضطرابات قد انعكس على مجمل نظام الحياة الاجتماعية والثقافية.

ويمكن القول إن تلك الأحداث الممتدة التي عانت منها المنطقة وإلى وقت قريب قد أنتجت نظام تفكير يتسم بالحساسية الشديدة من أي ظاهرة قد تؤدي إلى تغيير النمط السائد ولو كان ذلك على المستوى الاجتماعي، وهذا تعبير (عنيد) عن الميل الدائم إلى الاستقرار وعدم التغيير حتى على مستوى العادات والتقاليد الاجتماعية وصولاً إلى صناعة عقلية شديدة المحافظة في كل شؤون الحياة.. ومع أن الميل الطبيعي للأفراد في المجتمعات البشرية الخوف من الجديد والتمسك بالقديم إلا أن الواقع هنا يتسم بمزيد من الحساسية

_____ تأملات في نظام التفكير (المصلي مثلاً)

لكل ظاهرة تغييرية، فالواقع الذي استوعب آثار الأحداث التاريخية المتراكمة، واستخلص الكثير من العبر بعد معاناة شديدة تناقلتها الأجيال مسكون بالمحافظة والسكونية، وشعاره المرفوع «الباب اللي يجي منه الريح سده واستريح».. وهو تعبير عن الرفض الشديد لأي انعكاسات ناتجة من أي وضع جديد ومن أي نوع!

وإذا كان هذا حال الواقع المنعكس على الذهنية المحلية قد صاغها على وفق المنهج المحافظ، وربما وجد هذا الواقع ما يغذي رؤيته ويدعم منهجه في بعض التراث المذهبي، حيث الاتجاه العام والسائد يميل إلى المحافظة بشدة، ويتسم بحساسية شديدة لكل ظاهرة تغييرية! وهذا ما يرفع درجة الحساسية من التغيير في هذا الواقع إلى درجات عالية.

وقد امتد تأثير هذه العقلية المحافظة إلى جوانب الحياة المختلفة، فرغم وجود مجالات واسعة للاستثمار الاقتصادي محلياً وإقليمياً وعالمياً إلا أنها بقيت محافظة على نمط خاص من العمل الاقتصادي، ذلك الذي ينسجم والمحافظة، ويخشى المغامرة والمخاطرة الاقتصادية. ومن المعلوم أن كثيراً من مجالات الاستثمار الاقتصادي بحاجة إلى نزعة تحريرية من القيود للتوسع والتعمق في مجالات الاستثمار مما لا يتناسب والمنهج المحافظ، والعقلية المحافظة التي تمنع من المخاطرة، وهي كذلك أيضاً على صعيد الأفكار والمواقف سريعة الانفعال والفرز بل والتعبئة والحساسية من أي تغيير، وتجد لمحاصرة الخارج عن المؤلف، وتعمل على تحجيمه وتصفيته بلا هوادة وتراخي.

والمحافظة على المكان هو الآخر له موقع مكين في العقلية المحافظة، فالانتقال والاستقرار خارج البلدة أو المنطقة أمر غير مرغوب به، ويشكل حرجاً كبيراً، حتى إذا كان اضطرارياً ويؤثر في حياة الأشخاص بشكل مباشر، ويمس أرزاقهم.. من هنا رأينا أن الهجرات من المنطقة نادرة جداً، وتمت تحت ظروف قاسية وقاهرة.

إعادة بناء نظام التفكير

ليس من السهولة بمكان بناء نظام تفكير عند الأفراد بشكل سليم يتجاوز القصور ومشكلات الخلل والاعتلال، كون نظام التفكير حصيلة مجموعة من العوامل المختلفة والمتداخلة في صناعته كما أسلفنا حيث تتفاعل وتتساند جملة من الأنظمة في تشكله وصياغته كالنظام التربوي والثقافي والاقتصادي والسياسي..

من هنا فإن العمل على رفع كفاءة الأنظمة والعوامل المؤثرة -في بنائه- والعمل على تميتها سينعكس إيجابياً على أداء نظام التفكير باستمرار ويرفع من كفاءته، وسنلقي الضوء هنا على بعض العقد المختلفة المثبطة والتي تعمل على تضعيف فاعلية نظام التفكير وبالتركيز على ما يتصل بالمحلي منه، وسنعتبر أن تفكيك هذه العقد واستئصالها سيكون بمثابة خطوات على طريق إعادة بناء نظام التفكير.

من نافذة القول أن للنظام الثقافي أثر فعال في صناعة نظام التفكير، وبالتالي فإن تكثيف نقاط القوة وإزالة نقاط الضعف يساهم في صناعة نظام تفكير متقدم، ومن أهم تلك المفردات التي يمكن الإشارة إليها على مستوى النظام الثقافي ما يلي:

١- ثقافة الحتميات:

لقد تشكلت الثقافة المحلية في بعض جوانبها على جملة من الحتميات، واستقر في وعيها جملة من المراكز الفكرية الموهومة تأثرت بها، وربما شكلت قاعدة بيانات ومعطيات أساسية لمخرجات نظام التفكير، وهذا ما ينعكس بالضرورة على حركة المجتمع المتشعب بتلك التصورات. فالحتمية التاريخية المبنية على المظلومية (مثلاً) المستمرة والمؤبدة تغلغل إلى أعماق نظام التفكير، وتنفذ إلى كل أجزائه، وتؤسس تصورات محددة تؤثر في نظام التفكير المحلي وتساهم في تحديد اتجاهه، ورسم ملامحه.

فالشعور بالظلمة التاريخية واستمرارها، وإن هذا أمر حتمي لا بد منه وإن كان في ذلك الكثير من الحقيقة، إلا أن تلك الحتمية هي المسؤولة عن كثير من ردود الأفعال والسلبية، فالإحساس بالمظلومية يعطي انطباعات سيئاً عن الذات، ويحمل الآخر في كل الأحوال تبعات الحالة المعاشة بكل سلبياتها وسيئاتها، ويعفي الذات عن أي دور أو مسؤولية في صناعة الواقع.

كما تنمي هذه الحالة توهم الأعداء، بل وصناعتهم، من خلال الشعور في كل حين بترصد الآخرين وكيدهم الدائم، وينسحب ذلك حتى على مستوى علاقات الداخل، لتتحقق حالة الشعور بالمظلومية وإن كان من ذوي القربى، الذين هم منهم، وإليهم يعودون وينتمون!

إن تلك الحتمية المذكورة ربما أفقدت الأفراد الأمل في رؤية مستقبلهم الإيجابي المضيء، وأسلمتهم إلى مزيد من التشاؤم والإحباط والتسليم بواقع موهوم من صناعة تفكيرهم، فلم يعودوا قادرين على بذل المزيد من الجهد لتحسين واقعهم، وتحدي العقبات والمشكلات مادام أن الأمر محسوم سلفاً، ولعنة المظلومية تلاحقهم أبداً كظلمهم! فلا يجدي معها بذل الجهود ولا تحدي الظروف المعاكسة، وكل المحاولات عبثية لا طائل من ورائها.

إن نظام التفكير الذي يخزن لونا من الحتميات يكون حبيساً وأسيراً ومكبلاً بتلك الحتميات المعطلة بجزء كبير من فاعليته، وبالتالي فإن استئصال تلك الحتميات من المنظومة الثقافية يعيد التوازن إلى نظام التفكير، فليس كل مظلوم يعيش عقدة أبدية! إذ أن تلك المظلومية من الممكن أن تتحول إلى حافز لتغيير الواقع السيئ، وتحدي الظروف المعاكسة، والتغلب على حالات القنوط واليأس.

٢- عقلانية الخطاب:

ينمي الخطاب العقلاني نظام التفكير، فكلما توهج المنطق العقلاني وتجذر في النظام الاجتماعي والتربوي كلما توقعنا نمواً مضطرباً في نوعية نظام التفكير.

إن تنمية حالة العقلانية من شأنها أن تحد من تأثير الخطاب المغيب للعقل، والمهمش للموضوعية، فعندما يتوارى العقل بعيداً عن نظام التفكير في المجتمع، يتحول إلى مجمع للترهات، وأحلام المرضى، وأفكار اليائسين من الحياة، الذين يقرؤون الحياة بصورة خاطئة، ويحللون أحداثها بنظام تفكير بائس، الأصل عنده المعاجزية والغيبية! وكأن سنن الاجتماع الإنساني والطبيعي التي أودعها الخالق سبحانه وتعالى بقدرته قد رحلت وانتهت من الوجود وتعطلت، وأفسحت المجال للفكر المعاجزي الاستثنائي، فأصبح الأصل استثناء، والاستثناء هو الأصل! ما لكم كيف تحكمون!

إن لوناً معيناً من الخطاب الديني قد أوغل في استحضار الاستثناء وجعله بمكانة الأصل، ومكنه من التسلل خلسة إلى نظام التفكير تحت حجاب كثيف من القدسية الدينية المتعالية التي تجعل الحق فيه ومنه وإليه^(١٣).

إن تلك الظاهرة مسؤولة عن غياب التحليل المنطقي للأحداث، والموضوعية في التعامل معها. حيث الأحلام والرؤى المنامية تصبح دليلاً منطقياً، ورؤية موضوعية لمشروعات الأفراد، وحركتهم في الحياة.

إننا لكي نرتقي بنظام تفكيرنا مطالبون بزيادة حضور الخطاب العقلاني وتكثيفه لإعادة التوازن لنظام تفكيرنا بين الغيب والشهود، والمعاجزية والسنية، وهذا بدوره يحتاج لثقافة إصلاحية جريئة وأصيلية تتسم بالثبات والشجاعة والتوازن. فأفكار المجاملة، واجترار المقولات الساكنة لا تبني نظام تفكير راشد لأي أمة تنشد مستقبلاً أفضل لأنها تغطي الزيف، وتحابي الواقع، وعند ذلك يتعمق الفساد الفكري الثقافي، فلا يبقى ولا يذر، لأنه يدمر ثقافة الأمة ومفاهيمها ونظام تفكيرها وبالتالي هويتها ووجودها! تحت غطاء المقدس والممنوع والخط الأحمر، وما هو كذلك!

٣- بناء المفاهيم:

من المؤكد أن المفاهيم تمثل أوعية للقيم، وتشكل بمجموعها مرتكزات للتقدم والتحضر.. والعكس. وفي المأل تشكل حجر الزاوية في نوعية واتجاه نظام التفكير.. من هنا فإن تحديد المفاهيم الرئيسية في المنظومة الثقافية وفحصها بما هي في تصورات الأفراد، وإعادة بنائها وفقاً للضوابط والقواعد الفكرية في المنظومة الإسلامية، وعلى رؤية دينية متنورة ومتحررة من ضغوط الواقع الاجتماعي والأعراف البائسة، ومن واقع وضغوط المدنية الغربية المعاصرة، وقادرة على قراءة الواقع، وتشخيص أمراضه المختلفة -يمثل

انجازاً على طريق إعادة بناء نظام التفكير الذي أصابه الكثير من الخلل بسبب انهدام بعض المفاهيم أو تشوه بعضها أو جمود الآخر، أو اضطراب البعض، ولهذا كله انعكاسات سلبية على نظام التفكير، وهو المسؤول عن الاضطراب الحاصل في الثقافة السائدة، فلدينا ثقافة محافظة وأخرى متنورة، وثالثة تدعي التحرر وكل منها تمارس نفوذاً على قطاعات وشرائح اجتماعية مختلفة.

إننا ومنذ وقت مديد نعاني من مفاهيم تتسم بالموات والجمود في ثقافتنا التي تشكل عصباً حيويًا في نظام التفكير، وما لم يهرع المشتغلون بالشأن الثقافي لإعادة بناء المفاهيم وتأسيسها بما يتناسب والضوابط الإسلامية، وتخليصها من شوائب الموروث الاجتماعي، فإن نظام التفكير عندنا سيتخذ له مسار التكلس والجمود، وسيكون ذلك تمهيداً لاستلحاقنا بثقافة الآخرين المتحررة من كل القيود والضوابط، والصورورة المعرفية والثقافية تأبى الجمود والتكلس! فإما تقود ثقافتنا الآخرين فيستلهمون منها الإبداع والحيوية، وإما أن نكون غير ذلك!

ثانياً: على مستوى النظام التربوي:

يتكفل النظام التربوي - خصوصاً على صعيد الأسرة- بنقل المبادئ والقيم إلى الأجيال المتعاقبة ليضمن بذلك استمرار سلامة المجتمع من الوقوع في المحذورات المضادة للقيم والمبادئ، ولتواصل تعبئة الأجيال تبعاً بالقيم الباعثة والمحفزة على فعل الخيرات في كل حقول الحياة: الاجتماعية والاقتصادية والتربوية.

إن سلامة نظام القيم تعني بالملازمة نظام تفكير سليم، فالقيم الصالحة تنتج تفكيراً صالحاً، من هنا فإن النظام التربوي يشكل أساساً قوياً في توجيه وتنمية نظام تفكير صالح في حال قيامه بوظائفه المتمثلة في نقل المبادئ والقيم على أفضل وجه. بيد أن تعثر النظام التربوي في القيام بوظائفه ينعكس سلباً على نظام التفكير، ويمكن لنا عرض بعض المفردات ذات الصلة بالنظام التربوي المحلي، والتي تساهم في إعاقة بناء نظام تفكير سليم..

١- القمع والاستبداد:

لا تخلو المؤسسات التربوية المحلية أسرية كانت أو تعليمية من قسط وافر من المضمون القمعي، إذ تمثل هذه المؤسسات دور السلطة الضابطة والناظمة، بيد أن تضخم اعتبارات السلطة تحت ذرائع الخشية من الميوعة في العملية التربوية تقاوم المشكلة بانسياق تلك المؤسسات لاستخدام أدوات القمع.

فالآباء يستخدمون وسائل القمع مع أبنائهم بشكل مفرط، والمعلمون يعتبرون ذلك وسيلة هامة وراذعة لاستعادة النظام، ولو تم ذلك بالأساليب الخشنة والمتعنتة.

_____ تأملات في نظام التفكير (المصلي مثلاً)

وتتوارى خلف هذا المشهد المليء بالعنف في بعض فصوله ثقافة الحوار واحترام الرأي، وتحل الأوامر والنواهي الصارمة التي لا تعبأ بحدود الكرامة الإنسانية. وعندما تتكرس الأساليب المغيبة لثقافة الحوار، والمستحضرة لفكر القمع وإسكات الآخر، ومصادرة حقه في التعبير عن الرأي يتأسس حينها نظام تفكير متوحش يستثني الآخرين من حقوقهم، ويحرمهم منها، ويفترسهم عندما يكون قادراً على ذلك، ويمارس العدوانية على الغير بلا رادع. وعندما ينشأ الأفراد في مناخ تربوي سيء يفقدون الإحساس بالكرامة الإنسانية، ويعيدون إنتاج القمع مع غيرهم، فجرعات القمع التي اختزنوها في نفوسهم تحدد طريقة تفكيرهم وسلوكهم مع الآخر.

إننا بحاجة إلى نظام تربوي يتخلى عن العنف في التوجيه، وينبذ وسائل القمع في التربية، ويتبنى الموعظة (اللقمانية)^(٢٤) المعبرة عن اللين، وتحريك الأحاسيس الإنسانية بلطف، وإيقاظ الوجدان، وإثارة العقل، وهذا المعنى يجعل من النظام التربوي مُلهماً ومذكراً، وهذا ما يساعده على القيام بوظائفه بحيوية ورشد؛ للتخلص من العناصر السلبية وكنسها.

٢- المداهنة:

يتقبل الأفراد ضمن النظام التربوي السائد مبدأ الصمت على الأخطاء، وتجاهل مواقع الخلل، وغض الطرف عن الممارسات الخاطئة، والتكيف السلبي مع الواقع الفاسد، ويدعم النظام التربوي هذه الحالة من خلال ممالأة الواقع، والتستر على نقاط الضعف المجتمعية بذريعة احترام العادات والتقاليد أنى كانت، وكيف هي، والالتزام بالنظام العام، وبذلك لا يتعرض الواقع الفاسد إلى نقد، ولا يوجه إليه تساؤل، ولا يحتج عليه، ولا يعترض على مثالبه. بل يطالب النظام التربوي النشء خصوصاً بالتسليم للواقع والخضوع له واحترامه وربما تقديسه! وإن كان لا يستحق ذلك كله، مما يسبب في خلق نوع من الازدواجية في التفكير ومن ثم السلوك عند الأفراد، وعندما تتضخم حالة المداهنة عند الأفراد وتأخذ مكانها في نظام التفكير، تتراجع حالة الشجاعة في الإفصاح عن الأخطاء، ورفض المسلمات الباطلة، وإنكار الواقع الفاسد، والعمل على تصحيحه.

إن حالة المداهنة هذه كرسست الميوعة في التمسك بالقيم الحققة، والالانتماء للمبادئ الصالحة، كما تعاضم وازداد إفراز الواقع الفاسد المسكوت عنه بفضل (جين المداهنة)، فالتعمية على الواقع لا تزيده إلا سوءاً، وتغطية مفاصله تضيف إليه بؤساً فوق بؤس.

إننا بحاجة إلى نظام تربوي ينمي حالة الشجاعة في نقد الواقع، وكشف مثالبه، وإنكار سوءاته، وتعرية الأخطاء ممن صدرت، وينبغي أن يتم ذلك كله بالحكمة قولاً وفعلاً، بعيداً

عن حالة النقد المهووس بالفضائح والمسكون بالعقد والتطرف.
كما أننا بحاجة إلى نظام تربوي يتناول القضايا بشفافية لا تحابي الواقع ولا تداهنه،
وذلك لبناء نظام تفكير لا يتخالف فيه باطنه مع ظاهره بل يتطابقان، ولا يتعدان، فالتعدد
هنا فساد وخلل يبين نتجه روح المداهنة في النظام التربوي □

الهوامش:

- (١) الأمثال الشعبية البحرينية، ص ٨٩.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) الأمثال الشعبية الملاحية، ص ٥٧.
(٤) الغوص: استخراج اللؤلؤ من البحر، الأمثال الشعبية الملاحية، ص ٢٢٠.
(٥) النوخذة، الربان وهي مشتقة من «ناخذا» الفارسية والأوربية وتعني رب السفينة..، نفس المصدر السابق، ص ٢٢٠.
(٦) كالمثل السائد «غشاش النوخذة الخن مرقده» نفس المصدر السابق، ص ١٥٢.
(٧) الأمثال الشعبية، ص ٢٢١.
(٨) نفس المصدر، ص ٢٣٠.
(٩) جريدة الوطن السعودية، عدد ١٦٤١، ١٨/٢/١٤٢٦هـ.
(١٠) القطيف والبحرين.
(١١) القطيف واحة على ضفاف الخليج، ص ٥٣.
(١٢) المصدر السابق، ص ٩١.
(١٣) القطيف واحة على ضفاف الخليج، ص ٢٠٢.
(١٤) المصدر السابق، ص ٢٠٥.
(١٥) المصدر السابق، ص ٢٠٩.
(١٦) المصدر السابق، ص ٢٢١.
(١٧) المصدر السابق، ص ٢٢٥.
- (١٨) المصدر السابق، ص ٢٢٦.
(١٩) المصدر لسابق، ص ٢٤٥.
(٢٠) المصدر السابق، ص ٢٦٠.
(٢١) المصدر السابق، ص ٢٠٢.
(٢٢) المصدر السابق، ص ٢٦٠.
(٢٣) يتحدث الكثير من العلماء المصلحين عن هذه الظاهرة، ويتناولونها بالتحريض والنقد في بحوثهم ومن تلك النماذج نقتطع هذا النص «.. فالقرآن والأدعية التي كان لا بد أن تكرر في أنفسنا ضمير التقوى والتطلع إلى المستقبل الأفضل أو التراث الثقافي الذي خلفه (نهج البلاغة). والذي لا بد أن يغني فهمنا للقرآن.. كل هذه الثقافات التي كانت وسيلة إلى السعي والعمل، فأصبحنا نزعم أن لمجرد قراءة الأدعية والزيارات تأثيراً غيبياً في أوضاعنا، لا فرق أن تكون هذه القراءة بتفهم، وبدونه، ومن أجل العمل بمعانيها أم لا. (الثقافة الرسالية، ص ٨٣).
(٢٤) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِأَبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ سورة لقمان، آية ١٣.